القيم وأثرها في إقامة
ميزان السماحة والعزة
في الإسلام

إعداد
أ . د / عبد الفتاح عبد الغني العواري
عميد كلية أصول الدين القاهرة
١٤٣٨هـ – ٢٠١٧ م

ممثلاً لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر

ورقة مقدمة لمؤتمر "الأبعاد الأخلاقية في الرسالة المحمدية"
المنعقد بنواكشوط عاصمة الدولة الإسلامية الموريتانية
في الفترة من ١ – ٣ من ربيع الأول ١٤٣٨ هـ
الموفق ١ – ٣ ديسمبر ٢٠١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

—

بسم الله الرحمن الرحيم

القيم وأثرها في إقامة ميزان السماحة والعزة في الإسلام

شرع الله الإسلام للعالمين ليكون دستوراً لهم يقومون عليه في أمورهم الدينية وشئونهم الدنيوية ، فالإسلام كما قرر العقائد الواجب الأخذ بها ، والعبادات المترتبة عليها ، والأخلاق التي يجب التخلق بها ، والأسلوب الذي يجب اتباعه في النظر ، والبحث ، والاستدلال بالاعتماد علىٰ العقل والعلم ، والبعد عن الظنون والأهواء ، والأوهام ، وعن التقليد الأعمىٰ ، كذلك قرّر من ناحية أخرىٰ القيم ، والأصول التي يقوم عليها الاجتماع ، والواجبات المترتبة عليها ، والحوافظ الضرورية لها والأسلوب الذي يجب اتباعه في حفظ المجتمع بقيمه سليماً من العلل ، بريئاً من الخلل ، وهذا أمر فهمه المسلمون الأول من هذا الدين ، ومن نصوصه الصريحة قال الله تعالىٰ : ﴿ **وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ** ﴾[1].

وقد وعدهم الله تعالىٰ بسبب محافظتهم علىٰ تلك القيم ، وهذه الضروريات بسعادتي الحياتين وعداً صريحاً فقال عز اسمه : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[2].

وهكذا قاد الإسلام بقيمه الرفيعة ، ومُثُله النبيلة سفينة الحياة الاجتماعية في أمة ، في وسط هذه الشعاب القائمة من الحالات الإنسانية المتعارضة ، ودَفَعَها في مضطرب تياراتها الثائرة ، وأمواجها الهائجة الهادرة ، وتمكن من حفظ توازنها ، وتأديتها سليمة حتىٰ وصل بها إلىٰ شاطئ النجاة .

---

(1) سورة النحل : ٣٠ .

(2) سورة النحل : ٩٧ .

وهذا أمر لم يتحقق لأمة من الأمم في تاريخ البشر ، فهل سبق في تاريخه الطويل أن أمة من الأمم تألفت تألفاً عالمياً حول أصول عامة من الأخلاق ، والقيم العليا ، والمبادئ السامية ؟ مهدرة في سبيلها الفوارق القومية والجنسية ، واللغوية ، فقامت علىٰ صراط الحق المستقيم ، متحرية محارم الله في جميع ما تعمل ، ومحاسبة نفسها علىٰ كل صغيرة وكبيرة من الانحراف عن هذه الجادة المثلىٰ ؟

أكاد أجزم أن هذا أمر لم يتحقق إلا لأمة الإسلام ، حيث بسطت سلطانها علىٰ نحو نصف المعمورة ، ولم يتسن ذلك لأمة قبلها ، ولا بعدها ، وأسست مدنية فاضلة قامت علىٰ تلك القيم ، والأصول الإلهية ، وهذا أمر أصبح معترفاً به من جميع مؤرخي العالم الإنساني اليوم [1].

أيها السادة الفضلاء : بدء الإسلام شعاعةً من النور السماوي ، هبطت علىٰ قلب رجل فردٍ ، في عالم كله ظلمات بعضها فوق بعض ، ضلالات وأوهام في العقائد انحراف ، وانحدار في الأخلاق والعوائد ، انهيار في القيم ، وضياع للمثل والمبادئ ، فوضىٰ في المعاملات ، تفكك في الأسرة ، اختلال في التوازن بين طبقات المجتمع ، السلطان كله للقوة الباطشة ، أو للشهوة الجامحة ، ولا سلطان للقانون .

وتألبت كل عناصر الظلام ، في جزيرة العرب ، ومن حول جزيرة العرب ، لتطفئ هذه الشعاعة الأولىٰ من النور .

ولكن هذه الشعاعة لزمت مكانها ، وثبتت في قوة وإصرار أمام هذه الزوابع والأعاصير العاتية ... ثم أذن الله لها أن تشتد وتمتد وأن تنتشر ، وتستبحر ، فأخذت تزحف بدورها علىٰ جيوش الظلام لتبدّدها ، فلم تمض عشر سنين بعد هجرة نبيكم ﷺ حتىٰ غمرت بنورها الوضاء ، وسراجها الوهاج جزيرة العرب كلها ولم يفارق الدنيا صاحب هذا النور صلوات الله وسلامه عليه إلا بعد أن كان قد فتح لنوره طريقاً

(١) يراجع : مهمة الإسلام في العالم أ/ محمد فريد وجدي ٢ / ٧٠ فما بعدها .

إلىٰ خارج جزيرة العرب ، ليبدد ما حولها من الظلمات وليكف بأس القوىٰ الشريرة التي تآمرت عليه في الدولتين العتيقتين : دولتي الفرس والروم .

لقد قاد بنفسه جيش المسلمين إلىٰ (تبوك) مُسَارعة إلىٰ صد الحملة التي كان الروم قد تأهبوا لها في الشام ، فكانت الهزيمة الأدبية التي لحقت بجيش الروم يومئذٍ حيث لم يجرؤ أن يتقدم لملاقاة جيش المسلمين هنالك ، كانت هذه الهزيمة الأدبية إرهاصاً قريباً لهزيمة الدولتين عسكرياً وسقوطهما نهائياً في أول عهد خلفائه الراشدين .

ثم تتابعت هزيمة الظلام ، وتدفق نور الإسلام علىٰ الأرض شرقاً وغرباً فكان ما فتحه المسلمون في قرن واحد (٦٣٢ – ٧٣٢) أعظم وأضخم مما فتحته الدولة الرومانية في سبعة قرون كاملة . ا هـ[1].

ولو رحنا إلىٰ الميدان الرحب الفسيح في القرآن الكريم نبحث عن هذا السر العجيب لوجدناه متمثلاً في القيم التي تضمنتها نصوص هذا الكتاب المجيد ، والتي وعاها المسلمون الأول فحملوها مشعل هداية ، وأدوات بناء ، ووسائل إصلاح ، وعناصر حضارة . ومناهج رقي .

ذلكم لأن القرآن هو أصل القيم النبيلة ، والأخلاق الفاضلة ، فهو دين يربط بين القول والعمل ، والقيمة والسلوك ، والقيم فيه قاسم مشترك علىٰ مختلف أوجه الحياة ، سواءٌ أكانت اجتماعية أم سياسية أم تربوية أم قانونية ، وغاية القيم فيه أن تجعل أداء العمل الطيب واجباً محتماً وتجعل تجنب العمل الضار واجباً محتماً ، وتجعل الخوف من الله أقوىٰ وازعٍ يخالط بشاشة القلوب مخالطة الإيمان لها .

والقيم الأساسية في ديننا الحنيف ثابتة لا تتغير لكونها صالحة لكل زمان ومكان ، فالقيم (الأخلاق) كالعقيدة والشريعة ليست من صنع الإنسان ، وإنما هي هبة خالق

---

(١) يراجع : حصاد قلم أ . د / محمد عبد الله دراز ص٣٥٥ فما بعدها .

الإنسان ، ومن ثم فهي قائمة على الزمان ما بقي الزمان على اختلاف البيئات والعصور. . .

إنّ من أبرز قواعد الإسلام هو ثبات القيم ، وبالتالي ثبات الأخلاق ، وإن الالتزام الخُلُقي هو قانون أساس يمثل المحور الذي تدور حوله القيم ، فإذا زالت فكرة الالتزام قضى على جوهر الهدف الأخلاقي ، ذلك أنه إذا انعدم الالتزام انعدمت المسؤولية ، وإذا انعدمت المسؤولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه [1].

فلتتدبر آيات القرآن الكريم حق التدبر ، ولنتأملها التأمل الصادق لتكشف لنا الأسرار الزاخرة التي تمثلها قيمه البانية لسماحة الإسلام المحققة لعزته .

قيمة مكارم الأخلاق والبعد عن ملائمها :

نقرأ في ذلك قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [2].

فالله تبارك وتعالى يأمر في كتابه الكريم الذي أنزله على رسوله ﷺ بالعدل والإنصاف ، ولا نصفة أجمل من الاعتراف بمن أنعم عليه بنعمه ، والشكر له على إفضاله وحمده ، وهو أهل الحمد ، أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : " دعاني عمر بن عبد العزيز فقال : صف لي العدل ، فقلت : بخ سألت عن أمر جسيم ، كن لصغير الناس أبًا ، ولكبيرهم ابنًا، وللمثل منهم أخًا ، وللنساء كذلك ، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم ، وعلى قدر أجسامهم ، ولا تضربنّ لغضبك سوطًا واحداً فتكون من العادين " [3].

---

(1) يراجع : القيم الأخلاقية في القرآن الكريم نشر بموقع : الكلم الطيب (ربيع القلوب) .

(2) سورة النحل (٩٠ – ٩١) .

(3) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢٢٩٩) رقم (١٢٦٣٥) .

ومرّ علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – بقوم يتحدثون فقال : فيم أنتم ؟ فقالوا نتذاكر المروءة . فقال : " أوما كفاكم الله عز وجل ذاك في كتابه إذ يقول : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان " فالعدل : الإنصاف ، والإحسان التفضل فما بقي بعد هذا ؟ "[1].

وأعلىٰ مراتب الإحسان الإحسان إلىٰ المسيء ، وقد أمر به النبي ﷺ وقال عيسىٰ بن مريم عليه السلام : " إنما الإحسان أن تحسن إلىٰ من أساء إليك ليس الإحسان أن تحسن إلىٰ من أحسن إليك " .

فالقرآن الكريم جمع فضائل الأخلاق والآداب التي متىٰ طبقها المسلمون – كقيمة عالية – تحقق بتطبيقهم لها إصلاح حال النفوس ، وصلاح حال الأمم والشعوب .

لقد بلغ أكثم بن صيفي مَخْرجُ النبي ﷺ فأراد أن يأتيه فأبىٰ قومه أن يَدَعوه ، وقالوا أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه ، قال فليأته من يبلغه عني ، ويبلغني عنه ، فانتدب رجلان فأتيا النبي ﷺ فقالا : نحن رسل أكثم بن صيفي وهو يسألك من أنت ؟ وما أنت ؟ فقال النبي ﷺ : " أما مَنْ أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا ؟ فأنا عبد الله ورسوله ، قال ثم تلا عليهم : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ الآية ، قالوا : ردّدْ علينا القول فردّده عليهم حتىٰ حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا : أبىٰ أنْ يرفع نسبه ، فوجدناه زاكي النسب ، وسطاً في مضر ، وقد رمىٰ إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهىٰ عن ملائمها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناباً ، كونوا فيه أولاً ، ولا تكونوا فيه آخراً "[2].

فالآية الكريمة جامعة أصول التشريع ، إذ العدل أصل جامع للحقوق الراجعة إلىٰ الضروري ، والحاجيّ من الحقوق الذاتية ، وحقوق المعاملات ، والمسلم الحق

---

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/ ١٦٠) وعزاه لابن النجار في تاريخه والعراقي في حمل الأسفار (٣/ ١٣٨٣) .

(2) أخرجه أبو نعيم في كتاب معرفة الصحابة (٢/ ٤٢٠) ، وأورده ابن حجر في الإصابة (١/ ١١٩) وقال " هو مرسل " .

مأمور بالعدل في ذاته ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ** ﴾ [1]، ومأمور بالعدل في المعاملة ، وهي معاملة مع خالقه بالاعتراف له بصفاته ، وبأداء حقوقه ، ومعاملة مع الخلق من أصول المعاشرة العائلية ، والمخالطة الاجتماعية وذلك في الأقوال والأفعال : ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ** ﴾ [2] ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [3] ومن ثم تفرّعت تفاصيل العدل إلىٰ أدلة الشريعة ....

والإحسان معاملة بالحسنىٰ ممن لا يلزمه إلىٰ من هو أهلها ، والحسن ما كان محبوباً عند المُعَامل به ، ولم يكن لازماً لفاعله ، وأعلاه ما كان في حق الله تعالىٰ مما فسّره النبي ﷺ بقوله الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) [4].

ودون ذلك التقرب إلىٰ الله تعالىٰ بالنوافل ثم الإحسان في المعاملة فيما زاد علىٰ العدل الواجب ...

ومن أدنىٰ مراتب الإحسان ما في حديث الموطأ : " أنّ امرأة بغياً رأت كلباً يلهث من العطش يأكل الثرىٰ فنزعت خفها وأدلته في بئر ونزعت فسقته فغفر الله لها " [5].

قيمة العفو والصفح :

ومن قيم القرآن التي تبني سماحة الإسلام وعزته العفو والصفح والإعراض عن من يؤذيك جهلاً قال الله تعالىٰ : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [6] لقد أمر النبي الكريم بأن يعفو ويصفح ، وذلك بعدم المؤاخذة بجفائهم وسوء خلقهم ، فلا يعاقبهم ، ولا يقابلهم بمثل صنيعهم كما قال الله تعالىٰ : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ**

---

(١) سورة البقرة (١٩٥) .

(٢) سورة الأنعام (١٥٢) .

(٣) سورة النساء (٥٨) .

(٤) حديث أخرجه الترمذي مطولاً وقال : حسن صحيح .

(٥) حديث أخرجه مالك في الموطأ . ويرجع : التحرير والتنوير ١٤/ ٢٥٤ فما بعدها .

(٦) سورة الأعراف (١٩٩) .

لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [1]، وقد عمت الآية صور العفو كلها ، ولا يخرج عن هذا العموم من أنواع العفو أزمانه وأحواله إلا ما أخرجته الأدلة الشرعية مثل العفو عن القاتل بغيلة ، ومثل العفو عن انتهاك حرمات الله والرسول ﷺ أعلم بمقدار ما يُخصّ من هذا العموم ، ثم العفو عن المشركين المقصود هنا أسبق أفراد هذا العموم إلىٰ الذهن من بقيتها ، ولم يفهم السلف – رضي الله عنهم – من الآية غير العموم ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : قدم عيينة ابن حصن المدينة فنزل علىٰ ابن أخيه الحرّ بن قيس ، وكان الحرُّ بن قيس من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ، ومشاورته ، فقال عيينة لابن أخيه لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لي عليه ، فاستأذن الحرّ لعيينة ، فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال : هيه يا ابن الخطاب ما تعطينا الجزل [2]، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتىٰ همَّ أن يُوقع به ، فقال له الحرّ يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيّه : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ وإنّ هذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله " [3].

وفي البخاري أيضاً عن عبد الله بن الزبير قال : ما أنزل الله ذلك إلا في أخلاق الناس

---

(1) سورة آل عمران (١٥٩) .

(2) الجزل : أرض كثيرة الحجارة ، أو الحطب اليابس ، أو العطاء الكثير . يراجع النهاية في غريب الحديث.

(3) البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن – باب (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) (الأعراف : ١٩٩) (٦/ ٦٠) رقم (٤٦٤٢) .

عقب القرطبي علىٰ صنيع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، والحرّ بقوله : قلت : فاستعمال عمر لهذه الآية واستدلال الحرّ بها يدل علىٰ أنها محكمة لا منسوخة ، وكذلك استعملها الحسنُ بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وإذا كان الجفاء علىٰ السلطان تعمداً واستخفافاً بحقه فله تعزيره ، وإذا كان غير ذلك فالإعراض ، والصفح والعفو كما فعل الخليفة العدل . ا هـ . الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٤٢٢ .

[1]، ومن قال إن هذه الآية نسختها آيات القتال فقد وهم لأن العفو باب آخر وأما القتال فله أسبابه ، ولعله أراد من النسخ ما يشمل معنىٰ البيان أو التخصيص كما هو مقرر في علم أصول الفقه [2].

فبهذه الآية أمر الله رسوله ﷺ بثلاثة أشياء هي أسس عامة للشريعة في القيم والآداب النفسية ، والأحكام العملية التي تبنىٰ وترسي دعائم السماحة والعزة في الأمة متىٰ طبقت ذلك وتحلت به سلوكاً عملياً يتراءىٰ للناس فيسر الناظرين .

فالعفو هو السهل الذي لا كُلفة فيه ، أي خذ أيها الرسول الكريم ما عفا لك من أفعال الناس ، وأخلاقهم ، وما أتىٰ منهم وتسهل ، ولا تطلب منهم ما يشق عليهم حتىٰ ينفروا فكان من هديه ﷺ السماحة واليسر والتسهيل : (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا) [3].

فمن قواعد شريعته ﷺ اليسر وتجنب الحرج ، وما يشق علىٰ الناس ، وقد صح عنه " أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما " [4].

ثم أمره أن يأمر بالمعروف وهو ما تعرفه النفس من الخير وتأنس به ، وتطمئن إليه ولا شك أن هذا مبني علىٰ اعتبار عادات الأمة الحسنة ، وما تتواطأ عليه من الأمور النافعة في مصالحها .

وقد ذكر المعروف في القرآن المدني جانب الأحكام الشرعية العملية ، كوصف الأمة الإسلامية وحكومتها كقوله : ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ** ﴾ [5] وقوله : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَىٰ**

---

(1) البخاري في صحيحه في الموضع السابق نفس الكتاب والباب والصفحة رقم (٤٦٤٣) .

(2) يراجع : التحرير والتنوير ٩ / ٢٢٦ – ٢٢٧ .

(3) حديث أخرجه أحمد في مسنده وحكم عليه محققوا المسند بالصحة .

(4) حديث أخرجه أحمد في مسنده وحكم عليه محققوا المسند بالصحة .

(5) سورة النور (٤١) .

الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1]، وعند ذكر الحقوق الزوجية كقوله : ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾[2]، وفي أحكام الطلاق كقوله ﴿ **فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾[3] ، وقوله ﴿ **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** ﴾[4] ومن ذلك ترىٰ أن كلمة (المعروف) لم تذكر إلا في القيم النبيلة والأحكام الهامة ، والآداب السامية : ﴿ **لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾[5]، وأن المراد به ما هو معهود بين الناس في المعاملات ، والعادات ، ولا شك أنه يختلف باختلاف الشعوب ، والبلاد والأوقات ، ومن ثم قال بعض أئمتنا – رحمهم الله – المعروف ما يُسْتحسن في العقل فعله ، ولا تنكره العقول الصحيحة ، ويكفي المسلمين المحافظة علىٰ النصوص الثابتة ، إذ لا يمكن للمؤمن أن يستنكر ما جاء عن الله ورسوله ، وليكن للجماعة بعده رأي فيما يعرفون وينكرون ، ويستحسنون ويستهجنون ويكون عمدتهم في ذلك جمهور العقلاء ، وأهل الفضل والأدب في كل عصر ، ومصر.

أيضـًا أمر الله نبيه ﷺ بأنْ يعرض عن الجاهلين وهم السفهاء وذلك بترك معاشرتهم ، وعدم مماراتهم ، فلا علاج للوقاية من أذاهم إلا الإعراض عنهم ، وقد روىٰ عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال : " ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها [6]، وروىٰ ابن جرير الطبري وغيره عن جابر : " أنه لما نزلت هذه الآية سأل

---

(1) سورة آل عمران (١٠٤) .

(2) سورة النساء (٢٢٨) .

(3) سورة البقرة (٢٢٩) .

(4) سورة البقرة (٢٣١) .

(5) سورة النساء (١١٤) .

(6) ذكره البغوي في تفسيره ٢ / ٢٢٤ .

النبي ﷺ جبريل عنها فقال : لا أعلم حتىٰ أسأل ثم رجع فقال : إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك "[1].

وقال بعض العلماء : هذه الآية قد تضمنت قواعد الشريعة ، فلم يبق فيها حسنة إلا وعتها ، ولا فضيلة إلا شرحتها ، فقوله : خذ العفو إيماء إلىٰ جانب اللين ، ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء ، وأمور التكاليف . وقوله : وأمر بالعرف تناول جميع المأمورات ، والمنهيات ، وأنهما ما عرف في الشريعة حكمه ، واتفقت القلوب علىٰ علمه ، وقوله : وأعرض عن الجاهلين تناول جانب الصفح بالصبر الذي يتأتىٰ للعبد به كلُّ مراد في نفسه وغيره ا هـ[2].

قيمة الأخوة الإنسانية :

ومن القيم التي جاء بها القرآن كي يبني بها سماحة الإسلام وعزته قيمة الأخوة الإنسانية .

المبدأ الذي اتخذه الإسلام شعاره الوحيد في الجانب الإنساني من دعوته ألا وهو مبدأ " الأخوة الإنسانية " وتلك قيمة نفيسة في الإسلام حماها وأحاطها بسياج منيع وشرّع لها من التشريعات السديدة التي تحفظها .

لقد تعب العقل البشري وهو يبحث في الفلسفات الأخرىٰ ، وفي الدساتير الديمقراطية الحديثة كي يجد ما يحقق هذه القيمة فلم يجدها ، وبعدها عاد العقل بعد طول وحدته ، ونُجْعَته في طلب الشريعة المثالية ، فلم يكد يلقي عصاه ، ويستقر به النوىٰ حتىٰ شعر بنفسه ساجداً أمام كلمة الوحي الإلهي ، لأنه لم يجد حكماً أحسن من

---

(١) أخرجه القضاعي في الشهاب (١١٩٥) وقال الذهبي في الميزان ٣/ ٥٥٠ : حديث معضل . وأورده ابن العربي في أحكام القرآن ٢/ ٨١٢ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٢٤٦ ، والطبري ١٠/ ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، وأبو الليث في تفسيره ١/ ٥٩٠ ، والقرطبي ٩/ ٤١٩ .

(٢) يراجع : تفسير المراغي ٩/ ١٤٧ – ١٤٩ ، ويراجع معه :

حكمها ، ولا نوراً أتم من نورها .

وفي الحق أن قيمة الأخوة الإنسانية شريعة كاملة قائمة بنفسها تغني عما سواها ، ولا يغني عنها شيء مما عداها ...

ذلك أنها تحمل في طيها أنبل ما في شريعتي الحرية والمساواة من مثل سامية وفي الوقت نفسه تتحاشىٰ ما فيهما من تطرف ، وشذوذ .

قيمة الأخوة الإنسانية جعلها القرآن رحماً موصولة بين الناس جميعاً ، ووصانا رعايتها أبلغ وصية وأكدها : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [1].

ألا فلنستمع إلىٰ من تنزلت عليه هذه الآية الكريمة – صلوات ربي وسلامه عليه حين يناجي ربه مقرراً المعنىٰ الأشمل للإسلام ، معلناً قيمة الأخوة الإنسانية قائلاً : " اللهم ربنا ، ورب كل شيء : أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك " .

" اللهم ربنا ورب كل شيء : أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك "

" اللهم ربنا ورب كل شيء : أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة " [2].

وإن يممنا وجهتنا شطر كتاب الله تعالىٰ كي نلتمس مطلبنا لوجدناه منشوراً بين أيدينا في ثلاث سور متواليات ، سورة محمد تسجل الركن الأول من مناجاته ﷺ : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ** ﴾ [3] وسورة الفتح تعلن الركن الثاني من مناجاته ﷺ : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ** ﴾ [4]، وسورة الحجرات تذكرنا بالركن الثالث الذي يمثل القيمة الغالية قيمة

---

(١) سورة النساء (١) .

(٢) حديث أخرجه أبو داود عن زيد بن أرقم كتاب الصلاة ، باب ما يقول الرجل إذا سلم ، ج ٢ / ص١٢٨٩ .

(٣) سورة محمد (من الآية ١٩) .

(٤) سورة الفتح (من الآية ٢٩) .

" الأخوة الإنسانية : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾[1].

* ومن دستور الأخوة الإنسانية انبجس قانون الحرية ، والقارئ لنصوص الشريعة الإسلامية – علىٰ اختلاف مواضيعها وفروعها – لوجدها ترجع إلىٰ أصول وقواعد أساسية خرّجها " علم الأصول " الذي نفاخر العالم كله به ، وإذا أحصىٰ المتتبع – مسلماً أو غير مسلم – جميع النصوص الشرعية الواردة بشأن هذه القيمة النفيسة خاصة الحرية الفردية في الإسلام في باب المعاملات ، والعقوبات والأخلاق الاجتماعية ، واستقصاها وجمعها علىٰ صعيد واحد ، وقارن بينها وجدها تتلاقىٰ علىٰ المفهوم الآتي " لقد ولد الناس – كل الناس – أحراراً ، وحريتهم في الحياة مطلقة في كل شيء ، وتبقىٰ مطلقة حتىٰ تصطدم بالحق أو بالخير " .

فإذا اصطدمت بالحق أو بالخير سواء كان خير الفرد أو خير المجتمع – فإن الحرية الفردية – عندئذٍ – تقف وتنكمش ، وتتقيد عند حدود الحق والخير .

هذه هي فلسفة الحرية – كقيمة سامية – في الإسلام ، والفرق الواضح بينها وبين فلسفة الحرية عند الغرب يرجع إلىٰ أن الحرية الغربية تعتمد علىٰ القانون ، وفروع القانون المقيدة للحرية مختلفة فليس لها أصل جامع واحد ترجع إليه ، خلافاً للإسلام الذي وضع الأصل الجامع ، واعتبر مصادمة الحرية الشخصية للحق أو الخير علىٰ إطلاقه سواء بالنسبة إلىٰ الفرد أو إلىٰ المجتمع الخاص ، أو المجتمع الإنساني العام ، بل إلىٰ الحيوان والنبات النافع سبباً لتقييدها .

لقد جاء الإسلام بنصوص واضحة وصريحة تحافظ علىٰ الحرية الفردية حتىٰ في جانب الاعتقاد وفي ذلك يقول الله تعالىٰ : ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**

(١) سورة الحجرات (من الآية ١٣) .

﴾[1]، ويقول عز اسمه : ﴿ **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾[2].

ولقد كان قانون الحرية الذي انبجس من دستور الأخوة الإنسانية قانوناً عادلاً ، ومنطقياً ، وضرورياً لابُدّ منه مادام الإسلام يقر الحرية للإنسان ويعتبرها طبيعية وضرورية وبدهية ، فإنه ما كان للقرآن – وهو من عند الله – أن يكون في أحكامه اختلاف وتناقض ، وما كان لله جلّت حكمته وعلت قدرته أن يقول للناس آمنوا بي واعبدوني مكرهين ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾[3].

فالله الذي خلق الناس أحراراً في تفكيرهم لم يكرههم علىٰ أن يؤمنوا به ويعبدوه ، لأن معنىٰ العبادة الحقة ، ومعنىٰ التكليف المعقول لا يتلاءمان مع الإكراه الذي يجعل من الإنسان الحر المفكر المدعو في القرآن إلىٰ الإيمان بعد التفكير السديد قطعة من حجر ، أو فلذة من حديد ، فالأحكام الشرعية التي قررها الإسلام في قانون حرية العقيدة ترتكز كلها علىٰ أساس مفهوم الحرية عنده ، فكل عقيدة لا تصطدم بالحق من حيث كونها تنبثق في أصلها وأساسها من الإيمان بوجود الله الخالق الديان – بقطع النظر عن ملابسات التفكير الجانبية الخاطئة التي طرأت عليها – هي في نظر الإسلام عقيدة يصان أهلها عن كل إكراه ، وإنما اكتفىٰ الإسلام بعرض وجهة نظره في الوحدانية الحقة المبرأة من كل شائبة تحريف أو تغيير عرضاً عقلياً جدلياً مهذباً ، وعلىٰ هذا الأساس – من عدم الإكراه ، وإطلاق حرية العقيدة والعبادة – عومل أهل الكتاب جميعاً ، وعومل المجوس عبدة الأوثان .

أما مشركو جزيرة العرب ، فلهم حكم خاص يدخل في باب سياسة الدولة – لوجودهم في الأرض التي انبثق عنها الدين – أكثر مما يدخل في باب الإيمان

(١) سورة البقرة (٢٥٦) .

(٢) سورة يونس (٩٩) .

(٣) سورة يونس (٩٩) .

والإلحاد كما لو رأت دولة من الدول أنْ لا يسكن عاصمتها رعايا دولة معادية لها حفاظاً علىٰ أسرارها السياسية والعسكرية [1].

* ومن دستور الأخوة الإنسانية اْقُتبِسَ قانون العدل السابغ والقسط الشامل الذي يستوي في حكمه البعيد والقريب ، والعدو والصديق ﴿ **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [2] ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ** ﴾[3] ﴿ **وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [4]، فالعدل فضيلة كما هو مقرر في الفطرة السليمة بل هو أس الفضائل ، ومجال العدل يقع به مقام الحكم الدقيق الصارم ، فالقاضي حين يفصل بين الخصمين ، والوالد حين يوزع بِرّه بين أولاده ، والمربي والمعلم ، والوصي والقيم ، وكل راع في رعيته ليس له أن يحابي أو يجامل أو يؤثر أو يفضل ، إذ كيف يؤثر بشيء غيره ؟ وكيف يتفضل بما ليس من حقه ؟ أتتملكه عاطفة الإحسان علىٰ البائس الفقير ، فيجامله في الحكم ؟ كلا : ﴿ **إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا** ﴾ [5]. أتدفعه ثورة الغضب علىٰ العدو فيضاعف عليه الغرم والعقوبة ؟ كلا : ﴿ **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا** ﴾ [6] ، أتحمله صلة القرابة أو النسب أو عصبية الإقليم أو المذهب علىٰ التحيز لإخوانه فيها ظالمين ... أو مظلومين ؟ كلا : ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَىٰ الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا**

---

(1) يراجع : فلسفة الحرية في الإسلام وصلاحها لمعالجة مشكلات المجتمع الكبرىٰ في العصر الحديث فضيلة الشيخ / نديم الجسر ص٢٩٢ – ٢٩٣ ضمن أعمال المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية عدد شوال ١٣٨٣ – مارسة ١٩٦٤ م ط . الثانية .

(2) سورة المائدة (من آية ٨) .

(3) سورة النساء (١٣٥) .

(4) سورة الحجرات (٩) .

(5) سورة النساء (١٣٥) .

(6) سورة المائدة (٨) .

بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[1]. وقال تعالىٰ : ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ... ﴾**[2].

أيحز في نفسه منظر العقوبة ، أيزعجه صوت الشكاية فيعفو عن الجريمة بعد أن ذاع صيتها ، ورفع إليه أمرها ؟ كلا : ﴿ **وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ ﴾**[3].

أيترك الحاكم العادل دولته نهباً لأعدائها ، أو يقطعهم شبراً من أرضها ، أو يمنحهم حق التحكم في رقبة من رقاب أهلها ؟ كلا إن أرض الإسلام ، وحقوق المسلمين ليست ملكاً لفرد ولا لجماعة وليست حقاً لأمة ولا لجيل من الأمم ، إنما هي حق الأجيال كلها حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها ؟ فالتسامح فيها تصرف في حق الغير والضنّ بها والدفاع عنها ليسا مشاحة[4] في حظ النفس ، وإنما هو غضب لحرمة الله والوطن : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾**[5] ﴿ **وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا ﴾**[6].

ونحن إذا رحنا نتأمل أكثر النصوص القرآنية التي وردت في مدح العدل والأمر به وجدناها صريحة في هذا الباب مما يُعلي من قيمة العدل والقسط ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾**[7]، ﴿ **يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾**[8]. ﴿ **وَإِنْ**

---

(1) سورة الحجرات (٩) .

(2) سورة النساء (١٠٥ – ١٠٩) .

(3) سورة النور (٢) .

(4) المشاحة : الضنة والبخل والحرص . يراجع لسان العرب .

(5) سورة البقرة (١٩٠) .

(6) سورة النساء (٧٥) .

(7) سورة النساء (٥٨) .

(8) سورة ص (٢٦) .

حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾[1]. ا هـ[2].

* ومن دستور الأخوة الإنسانية اسْتُمِدَّ قانون تقدير الأمانات ، ووجوب أدائها حتىٰ إلىٰ الخارجين عن الوطن ، والجنس والدين ﴿ **اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾**[3]، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾**[4]،﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾**[5]، ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾**[6]، ا هـ[7].

قيمة السلام :

ومن القيم البانية لسماحة الإسلام ، المحققة لعزته ، قيمة السلام والسلام في الإسلام هو القاعدة ، والحرب استثناء متىٰ دعت الحاجة إليها لدفع عدوان المعتدي ، وحماية المقدسات والأوطان ، وصوناً للدين والمال والعرض ، وحفظاً للنفس الإنسانية لكن بعض المغرضين من الباحثين الذين حملتهم العصبية المقيتة والهوىٰ البغيض يقول : إذا كان الإسلام قد دعا إلىٰ السلام ، وتدعيم العلاقات الطيبة مع العالم أجمع ، فلم كانت حربه في المرحلة الأولىٰ من الدعوة وما تبعها ؟

---

(1) سورة المائدة (٤٢) .

(2) يراجع : نظرات في الإسلام أ . د/ محمد عبد الله دراز – الكتاب الرابع إصدار خاص لهيئة كبار العلماء ، مجلة الأزهر عدد شهر ذي القعدة ١٤٣٦ هـ .

(3) سورة النساء (٥٨) .

(4) سورة الأنفال (٢٧) .

(5) سورة المؤمنون (٨) .

(6) سورة المعارج (٣٢) .

(7) يراجع في هذا المحرر الوجيز ٢/ ٧٩ فقد أبان القاضي ابن عطية أن الأظهر في الآية – يعني آية النساء – عامة في جميع الناس ، وأنها تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال ، ورد الظلامات ، وعدل الحكومات وغيره ، وتتناولهم ومن دونهم من الناس في حفظ الودائع ، والتحرز في الشهادات وغير ذلك ا هـ .

ولدفع هذه الشبهة نقول : إنه ليس أخطر علىٰ الباحث في الشريعة الإسلامية من الوقوف علىٰ أطرافها المجملة ، لأنه بذلك يدع نصوصها تتصادم ، وتتخاصم ، حتىٰ إذا سعىٰ في الصلح بينها برأيه لم يأمن علىٰ نفسه الهوىٰ ، والزلل في تأويلها ، وهذا شأن اتباع المتشابه الذي نهىٰ الله عنه ، وإنما يستبين موقف الإسلام واضحاً جلياً في هذا الضرب من المسائل حيث يُلْتمسُ حلُّها في تلك الآيات الجامعات التي تلتقي فيها الأطراف علىٰ قدر ، والتي يبرز بها التشريع الإسلامي في وحدة لا تنقسم ، وعروة لا تنفصم ، تلك هي الآيات المحكمات وهنّ أم الكتاب .

هذا الطراز من التشريع الثلاثي ، مفتاحه إذاً في وسطه لا في طرفيه وروحه في قلبه لا في جناحيه ، وسنريك الآن أين الأطراف ؟ وأين الأوساط في هذه القضية ، فانظر هاهنا في أقصىٰ الجانب الأيمن أليس يبرز الإسلام أمامك في شعاب " مكة " ووديانها ، رافعاً راية السلام ، باسطاً جناحي رأفة ورحمة يفيء إلىٰ ظلهما الوارف أنصاره وأعداؤه علىٰ السواء ؟

ألست تسمع كتاب الإسلام وهو يحدد مهمة حامله ؟ فإذا هي هداية وإرشاد ، وموعظة وتذكير ، وإنذار وتبشير ويجمع ذلك كله في كلمة واحدة " بلاغ " : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾[1] ، ﴿ **إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾[2]، ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** ﴾[3]، ﴿ **إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ** ﴾[4]، ﴿ **هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾[5].

وزد ما شئت من سماحة وكرم ، لا ترىٰ فيهما شائبة تعسف ولا انتقام ، ولا أثارة من

---

(1) سورة النحل (١٢٥) .

(2) سورة القصص (٥٦) .

(3) سورة الغاشية (٢١ – ٢٢) .

(4) سورة الرعد (٤٨) .

(5) سورة إبراهيم (٥٢) .

مقاومة أو اصطدام .

الإسلام إذاً – أيها السادة – : هو رسالة السلام وبدون سلام لا حقوق ، لأن فقدان السلم هو فقدان لكل الحقوق بما فيها الحق في الوجود ، فالسلام هو الحق الأول ، والمقصد الأعلىٰ الذي يحكم علىٰ كل جزئيات الحقوق ، ومن خلال الاستقراء الذي هو أوثق طريق لتأكيد المقصدية يمكننا أن نؤكد اليوم ، أنه لا مقصد يعلو علىٰ مقصد السلم وإن رمت دليلاً علىٰ ذلك فإليك طرفاً من إرشادات القرآن ، وهدي من تنزل عليه القرآن ﷺ .

١ – إن السلام هو اسمه تعالىٰ ، وهو اسم جنته التي أعدها لعباده المؤمنين ، وهو تحيته التي اصطفاها للمؤمنين في الدنيا وفي الآخرة علىٰ ألسنة أنبيائه فاسمه الملك القدوس السلام المؤمن ، ﴿ **وَاللهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلاَمِ** ﴾[١]، ويحيي أهل الجنة بالسلام ﴿ **سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ** ﴾[٢]، ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ** ﴾[٣]، وإبراهيم عليه السلام يستقبل ضيوفه الملائكة بالسلام ، رداً علىٰ سلامهم ﴿ **قَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ** ﴾[٤]، ويقول لأبيه سلام ﴿ **قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ** ﴾[٥]، وعيسىٰ عليه السلام يقول : إنه محفوف بالسلام ﴿ **وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** ﴾[٦]، وموسىٰ عليه السلام مازالت تحيته في العبرية " شالوم " يقول لفرعون : ﴿ **فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ** ﴾[٧]، وأمر

(١) سورة يونس (٢٥) .
(٢) سورة الرعد (٢٤) .
(٣) سورة إبراهيم (٢٣) .
(٤) سورة هود (٦٩) .
(٥) سورة مريم (٢٣) .
(٦) سورة طه (٤٧) .
(٧) سورة الأنفال (٦١) .

الباري عباده المؤمنين بالبحث عن السلام : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا** ﴾[1]، وأمر المؤمنين أن يدخلوا في بيت السلم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾[2]، ووصف عباده الأتقياء بالرد علىٰ الإساءة بالسلام : ﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا** ﴾[3]، ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ** ﴾[4]، ونحن نسلم علىٰ نبينا محمدٍ ﷺ والصالحين في صلواتنا كلها يوميًا .

أرأيت كيف تشير هذه الآيات إلىٰ السلوك العملي الذي يقدم السلام علىٰ طلب الحق وبهذا يجب أن لا يفهم السلام بأنه مجرد كلمة تلوكها الألسنة بل هو قول ، وسلوك ، وقيمة كبرىٰ ومبدأ ثابت ، وخلق راسخ .

٢- تُعلِمنّا سيرة النبيّ ﷺ حرصه علىٰ السلام ، وتقديمه له علىٰ الحقوق الأساسية وهذه أمثلة عامة ، وخاصة أقدمها بين يديك ففي صلح الحديبية يتحلل النبي ﷺ وأصحابه من واجب العمرة إلىٰ البيت بعد أن حرموا من أجل السلام ، وكان أصحابه علىٰ استعداد للدخول في الحرب للرد علىٰ المشركين الذين منعوهم من دخول الحرم لأداء واجب شرعي ، ولكنه حاورهم ، وفاوضهم ، ووقع معهم اتفاقًا كان بعض أصحابه يرونه مجحفًا بما فيهم عمر رضي الله عنه ، وكان علي رضي الله عنه هو الذي يكتب الاتفاق بين يديه منزعجًا من اعتراض قريش علىٰ اسمه تعالىٰ الرحمن الرحيم ، وعلىٰ وصف محمد رسول الله ﷺ بالرسالة فقالوا لا نعرف الرحمن الرحيم ، ولا نعترف برسالتك ، اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال له النبي ﷺ أمح ، فقال عليّ رضي الله عنه ، ما أنا بالذي أمحاه ، فأخذ الكتاب منه ، ومحاه بيده

(١) سورة البقرة (٢٠٨) .

(٢) سورة الفرقان (٦٣) .

(٣) سورة الفرقان (٦٣) .

(٤) سورة القصص (٥٥) .

الشريفـة [1].

إلىٰ غير ذلك من الشروط التي تضمن تسليم من أسلم ولجأ إليه مـن أبنـائهم دون أن يسلموا أحداً ، لقد كان عمر رضـي الله عنـه يقـول : لـم نعطـي الدنيـة في ديننـا [2]؟ إنهـا معاهدة عظيمة تعلمنا أهمية السلام ومآلاته المختلفة من مآلات الحرب ، وقـد قـال عليه الصلاة والسلام : (والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها) [3].

قال الخطابي في شرح هذا الحديث " إن حرمات الله هي القتال في الحـرم ، والجنـوح إلىٰ المسالمة والكف عن إراقة الدماء " [4].

وقال النووي في شرحه لحديث صلح الحديبية مـن صـحيح مسـلم : (قـال العلمـاء : والمصـلحة المترتبـة علىٰ إتمـام هـذا الصـلح مـا ظهـر مـن ثمراتـه البـاهرة ، وفوائـده المتظاهرة التي كانت عاقبتها فتح مكة وإسلام أهلها كلها ، ودخول الناس في دين الله أفواجـًا ، وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ، ولا تتظاهر عندهم أمور النبي ﷺ كما هي ، ولا يحلون بمن يعلمهم بها مفصلة ، فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلىٰ المدينة ، وذهب المسـلمون إلـىٰ مكـة وحلـوا بـأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه ، وسمعوا منهم أحوال النبي مفصـلة بجنباتهـا ، ومعجزاته الظاهرة ، وأعلام نبوته المتظاهرة ، وحسن سيرته وجميل طريقته ، وعـاتبوا أنفسهم كثيراً من ذلك ، فمالت نفوسهم إلىٰ الإيمان حتىٰ بادر خلق منهم إلـىٰ الإسـلام

---

(1) صحيح البخاري كتاب الصلح ، باب : كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان وأنه لم ينسبه إلىٰ قبيلته أو نسبه ح (٢٦٩٨) ، ومسلم . كتاب الجهاد والسير باب صلح الحديبية في صلح الحديبية الحديث (٦٠) .

(2) صـحيح البخـاري ، كتـاب تفسير القـرآن بـاب قولـه : ﴿ إذ يبايعونـك تحـت الشـجرة ﴾ الحـديث رقـم (٤٨٤٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٠٦ ط . دار الكتب العلمية . الطبعة الأولىٰ ١٤٠٥ هـ .

(3) صحيح البخاري . كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتاب الشروط الحديث (٢٧٣١) .

(4) معالم السنن للخطابي . المطبعة العالمية حلب ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م .

قبل فتح مكة ، فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وازداد آخرون ميلاً إلىٰ الإسلام فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم ، لما كان قد تمهد لهم من الميل ، وكانت العرب من غير قريش في البوادي ، ينتظرون بإسلامهم إسلام قريش فلما أسلمت قريش أسلمت العرب قال تعالىٰ : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ [1] فسمىٰ الباري جل وعلا ذلك الصلح فتحاً .

كل ما ذكر يدل علىٰ ثلاثة أمور :

أولها : إن الفرصة التي يمنحها السلم للمصالح الدينية والدنيوية أنجع من الفرص التي تَعِدُ بها الحرب .

ثانيها : إن السلم أرجح من الحقوق الجزئية .

ثالثها : إن المفاسد المترتبة علىٰ التقاتل تفوق تلك المترتبة علىٰ التنازل .

وفي غزوة المريسيع (غزوة بني المصطلق) لما كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، ونادىٰ كل منهم باسم فريقه ، اعتبرها رسول الله ﷺ دعوة جاهلية قائلاً : (دعوها فإنها منتنة) وتكلم رجال من المنافقين بكلام فيه إساءة شديدة ، قال تعالىٰ : ﴿ **يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [2] فرحل النبي ﷺ في الهاجرة لوأد الفتنة في القصة المشهورة [3].

وحين انسحب خالد في غزوة مؤتة في معركة مع الروم سمىٰ رسول الله ﷺ ذلك فتحاً

---

(١) سورة النصر كاملة ، ويراجع شرح النووي علىٰ مسلم ١٢/ ١٤٠ ط. دار إحياء التراث العربي.

(٢) الآية رقم (٨) من سورة المنافقون .

(٣) والقصة أخرجها البخاري في كتاب التفسير باب قوله (يقولون لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) ، وصحيح مسلم كتاب البر والصلة ، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً حديث (٦٣) .

" وأخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله عليه " [1].

٣- ومن الأدلة علىٰ ذلك شهادته ﷺ لسبطه سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما وأرضاهما بأنه سيد ، لأنه سيتنازل عن حقه في الخلافة من أجل السلم ، فقال رسول الله ﷺ كما تذكر الآثار في سيدنا الحسن : " إن ابني هذا سيد وعسىٰ الله أن يبقيه حتىٰ يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " [2]. وكان تنازل الحسن لمعاوية بعد أن بايعه الذين كانوا مع أبيه علي رضي الله عنهما من أهل الحجاز والعراق ، ومكث سبعة أشهر خليفة علىٰ العراق وما وراءه ، قبل أن يصالح معاوية بتسليم الأمر إليه علىٰ أن يكون له من بعده ، وأن لا يطلب أحداً بتبعة ، ودامت بينهما المفاوضات حتىٰ أرسل معاوية إليه رقًا ليكتب فيه شروطه وقال إنه ملتزم بها ، وكان أصحاب سيدنا الحسن رضي الله عنهما متحمسين لقتال أهل الشام ، ولكن سيدنا الحسن رضي الله عنه قال قولته المشهورة : (والله ما أحببت أن ألي أمر أمة محمدٍ ﷺ علىٰ أن يهراق في ذلك محجمة دم) [3].

وكذلك لم يشارك أحد من أهل البيت النبوي الشريف في حرب الحرة ضد يزيد ، فقد قال ابن كثير عن أبي جعفر الباقر بن علي زين العابدين رضي الله عنهما أن أحداً من آل أبي طالب ، وبني عبد المطلب لم يشارك في وقعة الحرة [4] وكان مع والده سيدنا زين العابدين في المدينة حرصًا منهم علىٰ السلم الأهلي .

٤- ومن الأدلة علىٰ قيمة السلام في الإسلام أنه سنّ المعاهدات ، فما كانت العرب تعرف إنهاء الحروب بالمعاهدات ، فكانت تتفانىٰ ، وربما استمرت الحرب بين

---

(١) صحيح البخاري . كتاب المغازي . باب غزوة مؤتة من أرض الشام حديث (٤٢٦٢) .

(٢) صحيح البخاري . كتاب الصلح . باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما : " ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين " وقوله جلّ ذكره " فأصلحوا بينهما " سورة الحجرات الآية (٩) .

(٣) كتاب الفتن لأبي عبد الله نعيم بن حماد (٢/ ١٧٣) وفضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٧٧٢ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ٢٥٦ .

القبيلتين عقوداً من الزمن ، حيث دامت حرب البسوس أربعين سنة بين بني بكر وبني تغلب وهما حيَّان ينتميان إلىٰ أبٍ واحد هو وائل .

ووقع رسول الله ﷺ عشرات المعاهدات مع مختلف الفئات والديانات لنشر السلم في جزيرة العرب كان آخرها عهوداً في سفره إلىٰ تبوك لتأمين الحدود مع الروم، حيث لم يجر قتال ، بل أعطىٰ عهداً ليوحنا بن روبة صاحب أيلة ، أمنّه علىٰ سفنه ، وقوافله في البر والبحر مقابل السلم [1].

كما صالح أهل أذرح وأهل جربا ، ولم يقع قتال ولا غنائم ، كما قال صاحب السيرة الحلبية [2].

والحق سبحانه وتعالىٰ عظم شأن المعاهدات ، وجعلها تقوم علىٰ حسن النية وسلامة الطوية ، والشفافية : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [3].

وقد أرسىٰ صلوات الله عليه أسس السلام في صحيفة المدينة " دستور " الداخل بين كل مكونات المجتمع مع اختلاف الديانات والأعراق ، وأسس السلام الخارجي بتلك المعاهدات ، والاتفاقات في داخل الجزيرة ، وعلىٰ حدودها .

واقتدىٰ المسلمون في تاريخه الناصع بهديه ، في نشر السلم عن طريق الاتفاقات والمعاهدات ، فأبرموا أكثر من ألف اتفاقية ومعاهدة مع أوروبا خلال قرون عدة ، وبذلك أسهموا تاريخيـًا في إرساء أسس السلم العالمي ، كما أنهم كانوا يمثلون الجدار الحاجز بين الشرق والغرب ، الذي حمىٰ أوروبا في القرون الوسطىٰ من موجة اجتياح المغول ، فامتص الصدمات قبل أن يصبح المغول مسلمين .

٥- ومن ذلك أن الإسلام ألغىٰ قضايا الثأر الجاهلي ، " وأن دماء الجاهلية

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٢٥ .

(٢) السيرة الحلبية لأبي الفرج الحلبي ٣ / ١٩٩ .

(٣) سورة التوبة (٤) .

موضوعة "[1]. وألغىٰ مبادرة الأفراد والجماعات للثأر ، وجعل ذلك للحاكم فقط وجعل القتال الخارجي " الجهاد " لا يقوم به إلا الحاكم لأنه لو قام به الأفراد لنشبت حروب، واضطربت معالم السلام ، فهو تدبير حكومي .

ومن ذلك ما فرضه الإسلام من الآداب الشرعية في العلاقة بين الوالد والولد من البر والإحسان بالوالدين ، وحسن التربية للأولاد ، وبين الحاكم والمحكوم من الطاعة للأول ، والعدل للآخر .

كل تلك الآداب لا تعتبر خنوعاً ، ولا مذلة ، ولكنها سلوك واع وأدب رفيع يسهم في تماسك المجتمع ، ويحقق السلم الاجتماعي ، وأنسنة العلاقات ، التي لا تقوم علىٰ جدلية الصراع الهيغلي – المؤكد بأن التناقض هو المبدأ المحرك الحقيقي للعالم – ولكن علىٰ روح التسامح ، لذلك كان مبدأ العفو عن السيئة ومقابلتها بالحسنة ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ** ﴾[2]، ﴿ **وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ** ﴾[3] من أهم المبادئ الخلقية لتعزيز السلم ، ومعناها عملياً أنك لا تترك حقك فقط ، بل إنك تعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، وتعطي مَنْ حرمك .

٦- ووضع الإسلام فقهاً متكاملاً لحل النزاعات بالوسائل السلمية العاقلة تتمثل مفردات هذا الفقه في " كتاب الصلح " وهو باب عظيم في كل كتب الفقه الإسلامي . فقد عرفوا الصلح بأنه : معاقدة يرتفع بها النزاع بين الخصوم ، ويُتوصل بها إلىٰ الموافقة بين المختلفين[4] فهو عند أكثر الأئمة مندوب[5] وعند السادة المالكية يكون

---

(١) صحيح مسلم . كتاب الحج . باب حجة النبي ﷺ . الحديث : ١٤٧ .

(٢) سورة المؤمنون (٩٦) .

(٣) سورة القصص (٥٤) .

(٤) يراجع : عقد الصلح، نزيه حماد ص٦٠ . الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع ط. ١٩٩٦م .

(٥) يراجع : شرح التلقين للمازري ٢/ ١٠٥٦ . دار الغرب الإسلامي ، حاشية الصاوي علىٰ الشرح الصغير لأبي العباس أحمد بن محمد الخلوتي الشهير بالصاوي ٣/ ٤٠٥ ط . دار المعارف .

واجباً إذا خيفت الفتنة والشر ، فيعدل القاضي عن الحكم ويدعو إلىٰ الصلح[1] .

وحكمته كما يقول الزاهد البخاري : هي أن الصلح رافع لفساد واقع أو متوقع بين المؤمنين ، إذ أكثر ما يكون الصلح عند النزاع ، والنزاع سبب الفساد ، والصلح يهدمه ، ويرفعه ، ولهذا كان من أجل المحاسن [2].

وأمر الله تعالىٰ به في كثير من الآيات ، ودعا إليه في قوله : ﴿ **لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [3].

قال القاضي أبو الوليد بن رشد : وهذا عام في الدماء والأموال والأعراض وفي كل شيء يقع التداعي ، والاختلاف فيه بين المسلمين [4].

فالصلح يكون في كل النزاعات والخلافات ، ويكون مع كل الناس ، سواء أكانوا دولاً أم أفراداً ، ويكون في الخلافات الزوجية ، كما يكون في الحروب الدولية أو الثورات الداخلية ، وقد ذكر العلماء خمسة أنواع من الصلح حسب الظرف المشارك ، والصلح يكون مع دولة معادية تختلف ديانة وسياسة ، تدخل في حرب مع دولة مسلمة ، ويسمىٰ هدنة وعهداً بنص القرآن الكريم ، وبين الحكومة والخوارج (البغاة) الثوار ، وهو بنص القرآن ، والصلح بين الزوجين خشية الشقاق ، والصلح في الجنايات والصلح في الأموال [5]. ا هـ .

---

(1) يراجع : منح الجليل شرح مختصر خليل لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن عليش المالكي ٨/ ٣٥٩ ط . دار الفكر . بيروت .

(2) يراجع : محاسن الإسلام ، وشرائع الإسلام لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشهير بالزاهد البخاري ص٨٦ ، وبذيله : مراتب الإجماع لابن حزم نقلاً عن : تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة الورقة التأثيرية للعلامة . عبد الله بن بيه ص١٩ – ٢٤ .

(3) سورة النساء (١١٤) .

(4) يراجع : المقدمات الممهدات لأبي الوليد محمد بن محمد بن رشد الجد ٢/ ٥١٥ .

(5) يراجع : تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة ص٢٤ (الورقة التأطيرية) .

قيمة التسامح :

المراد بالتسامح هو الذي يعني اتساع الصدر ، والتماس العذر ، ومعرفة مراتب النهىٰ والأمر ، فاتساع الصدر يعني قبول ظاهرة الاختلاف وفي وصايا المقري ، تعلم الخلاف يتسع صدرك ، فإذا عرف اختلاف العلماء وتباين مداركهم ، وتفاوت آرائهم اتسع صدره .

وإذا تعامل معه غير باحث عن الظهور والغلبة ، ولكن عن الحقيقة غير مستعمل الوسائل اللفظية النابية ، متواضعاً غير متعال ، ولا متعالم ، ولعلنا هنا نذكر أنموذج الشافعي رضي الله عنه حيث يخبر عنه مناظره ويبين عن مدىٰ تسامحه : قال يونس الصدفي : " ما رأيت أعقل من الشافعي ، ناظرته يوماً في مسألةٍ ، ثم افترقنا ، ولقيني ، فأخذ بيدي ، ثم قال : يا أبا موسىٰ ألا يستقيم أن نكون إخواناً ، وإن لم نتفق في مسألة " [1]. وقال : " ما ناظرت أحداً إلا قلت : اللهم أجر الحق علىٰ قلبه ولسانه ، فإن كان الحق معي اتبعني ، وإذا كان الحق معه اتبعته " [2].

ومعنىٰ قبول العذر أن لا تحمل مَنْ يخالفك علىٰ أنه كاذب ، بل تحمله علىٰ محمل مقبول ، كما في حكاية أم المؤمنين عائشة – رضي الله تعالىٰ عنها – مع ابن عمر – رضي الله عنه : " يغفر الله لأبي عبد الرحمن ، ولكنه لعله أخطأ أو نسىٰ " [3].

" ما عبر الجسر أعلم من إسحاق ، وإن كنا نختلف فما زال الناس يختلفون " [4] كما قال أحمد بن حنبل رحمه الله .

أما معرفة مراتب النهي والأمر ، فهي أن يعرف أن النهي مراتب في الشرع منه الحرام ، ومنه المكروه (الكراهة) ، وأن تعرف أن المنكر مراتب ، والأمر مراتب بالمعنيين

---

(١) يراجع : تاريخ ابن يونس الصدفي المتوفى (٣٤٧ هـ) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ١٦ .

(٢) يراجع : صفة الصفوة لأبي الفرج ابن الجوزي ١ / ٤٣٥ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز . باب الميت يُعذّب ببكاء أهله عليه حديث (٢٧) .

(٤) يراجع : الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي الجرجاني ١ / ٢٢١ .

السابقين . ا هـ[1].

قيمة الحب :

الحب قيمة سامية ، وخُلُق نبيل ، ويعني محبة الخير للآخرين ، والحب يعني محبة الله تعالىٰ الذي هو أصل النعم ومسديها ، ومحبة رسول الله ﷺ الذي جعله الله مظهراً الرحمة ، والكرم ، ومحبة الناس الذين هم مجال الابتلاء وفي الحديث : " أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه "[2]، وفي رواية : " (أن يحب للناس ما يحب لنفسه)[3].

قيمة الحوار :

الحوار ، قيمة راقية في التعامل مع الآخرين ، وقد رسخ المسلمون هذه القيمة من خلال ما يعرف بآداب البحث والمناظرة ، وهذه القيمة يجب أن تُفَّعل لأنها كفيلة بأن تعلمنا كيفية التعامل مع المخالف : ﴿ **وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[4] ، ﴿ **وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[5]. وإذا لم ترسخ ثقافة الحوار ، فقد يصبح المجتمع أنانياً ينغلق فيه الأفراد والجماعات : ﴿ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾[6]. ويصدق فيه الحديث النبوي : (إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىٰ متبعاً ودنيا مؤثرة ،

(١) تراجع : الورقة التأطيرية لابن بيه ص٢٨ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب الإيمان . باب : من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه حديث (١٣) ، ومسلم في صحيحه . كتاب الإيمان باب الدليل علىٰ أن فضائل الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه حديث (٧٢) .

(٣) مسند الإمام أحمد . حديث (١٣٨٧٤) .

(٤) سورة النحل : ١٢٥ .

(٥) سورة العنكبوت : ٤٦ .

(٦) سورة الروم : ٣٢ .

وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ، واترك أمر العامة)[1].

إلىٰ غير ذلك من القيم الهادفة التي جاء الإسلام بها ، والتي متىٰ طبقت كان لها الأثر الفعال في ميزان سماحة الإسلام ، وعزته ومتىٰ رآها الناس سلوكًا عمليًا يتحلىٰ به المسلم أقبلوا إليه وتعرفوا علىٰ دينه من خلاله بل ودرسوا شريعته فعند استبانة الحق لهم للتطابق بين المسلم كنموذج عملي ، والإسلام كنصوص تحلىٰ بها هذا المسلم فإنهم لا محالة – إن لم يُسْلموا دافعوا عنه ، وأنصفوه ، وعلموا أن ما يُوجه إليه من تهم العنف ، والتشدد والإرهاب إنما هي تهم تلصق به زوراً وبهتانًا والإسلام منها براء .

وهل يمكن لدين يملك ثروة هائلة من القيم الراقية ، والأخلاق السامية والمثُلُ النبيلة أن يكون مصدر شقاوة للإنسانية الحائرة ؟ وهل يتوقع من هذا الدين سوىٰ بث الأمن والطمأنينة في نفوس بني الإنسان ؟ وهل يراد لدين جاء لإسعاد الأحياء في الحياة أن تنطفئ شعلته المتوهجة ضياء ونوراً بسبب تصرفات حفنة من المنتسبين إليه ، فهمت نصوصه فهمًا متحجراً منغلقًا ، فصموا وعمو وضلوا ، إنه من الجرم وعدم الإنصاف أن يحاكم دين أو يهاجم شرع جراء تصرفات بعض أتباعه الذين يرتكبون حماقات في حق إخوانهم في الإسلام أكثر من إخوانهم في الإنسانية .

وحرام علىٰ اتباع الأديان الأخرىٰ أن يظلموا الإسلام ولا ينصفوه ، وعليهم أن يدركوا ويعوا تمام الوعي أن ما يؤخذ علىٰ تصرفات بعض أفراده الجاهلين بمحاسن تشريعاته وعظيم قيمه هو عين ما يؤخذ علىٰ تصرفات ، وحماقات بعض أتباع الديانات الأخرىٰ ممن ارتكبوا في حق الإنسانية فظاعات يندىٰ لها جبين التاريخ ، وتأباها العقول السوية ، ولا يرتضيها من كان له نصيب من منطق سديد ، ورأي رشيد .

---

(١) رواه ابن ماجه . كتاب الفتن باب . قوله تعالىٰ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ المائدة الآية (١٠٥) وأبو داود في سننه ، كتاب الفتن . باب قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ الحديث : (٤٠١٤) ، والترمذي . كتاب تفسير القرآن . باب ومن سورة المائدة : الحديث رقم (٣٠٥٨) .

إن الزمن – بإذن الله – كفيل بأن يكشف للبشرية جمعاء – مدىٰ حاجتها إلىٰ تعاليم الإسلام ، وقيمه الراقية ، وتشريعاته السمحة وعندها يعلم القاصي ، والداني أن نور الحق لن تقوىٰ قوة في الدنيا علىٰ إطفائه ، وإخماد شعلته التي عمت العالمين ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُّطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَىٰ اللهُ إِلاَّ أَن يُّتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ وأن هدايته لن تنهزم أمام جولة الباطل ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَىٰ الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** ﴾ .

ولكن السؤال : هل يظل المسلمون – خاصة العلماء منهم – قانعين بتلك الكلمات التي يرددونها بين ظهرانيهم ، ويلقونها علىٰ بني جنسهم وكأنهم يخاطبون أنفسهم؟ أم أن دوراً مهماً يجب القيام به في العالم لتصحيح الصورة المغلوطة عن الإسلام، وتقديم النموذج الأمثل ، وزرع القيم في نفوس الشباب كي يتعاملوا مع الآخر بروح الإسلام ، وسماحته ، وفي نفس الوقت أن يتمسكوا بكل ما يحقق لهم المكانة اللائقة بهم كخير أمةٍ أخرجت للناس ويحفظ عليهم كرامتهم ، ويصون عزّهم ومجدهم ﴿ **وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

والله من وراء القصد والهادي إلى سواء السبيل

كتبه

أ . د / عبد الفتاح عبد الغني العواري

عميد كلية أصول الدين القاهرة

في ١٦ صفر ١٤٣٨ هـ

الموافق ١٦ نوفمبر ٢٠١٦ م

القاهرة

فهرس الموضوعات

القيم وأثرها في إقامة ميزان السماحة والعزة في الإسلام..... ١١
قيمة مكارم الأخلاق والبعد عن ملائمها : ١٤
قيمة العفو والصفح :..... ١٦
قيمة الأخوة الإنسانية :..... ٢٠
قيمة السلام :..... ٢٦
قيمة التسامح :..... ٣٦
قيمة الحب :..... ٣٧
قيمة الحوار :..... ٣٧
فهرس الموضوعات..... ٤٠